



مبارك الحمداني

فلسفة الروح والحضارة عند هيغل: قراءة معاصرة

في مقالته المنشورة تحت عنوان: ”العلاقة بين الروح وفلسفة الحضارة في التاريخ العالمي عند هيغل“ يذهب الباحث يوسف سلامة إلى تفكيك معطيات (المنطق الجدلي) عند هيغل في معالجة موضوع العلاقة الوثيقة بين الروح، وفلسفة التاريخ والحضارة بحسب التصورات التي صكها هيغل على نطاقين مهمين من فلسفته الأول يقوم على (فلسفة التاريخ). والآخر على موضوع (ظاهريات الروح).

كمقاربة ماثلة أولى نجد أن نموذج التنوير بكل ما أفرزه من معطيات ومنتجات فكرية وحضارية أسس لها فلاسفته، يعتبر نموذجاً تطبيقياً فاعلاً على هذه الفلسفة التي صكها هيغل. حيث نجد أن العقل الكلي (الطبيعي) في أوروبا وقتها كان سائراً نحو التحرر الكامل والتقدم في اتجاه تحقيق ما يسميه أركون ”الأنسنة الشاملة“ التي تطبع كافة مناحي الحياة. لكن قوانين التاريخ لو أسقطناها بحسب قراءة هيغل هنا نجد جلياً أن المنطق الهيغلي صائب إلى حد بعيد (فالوعي الذاتي للروح) كان يستدعي أولاً اصطدام الروح بالروح الخارجي (الطبيعية) حيث صراع الكهوت الكنسي الذي يحكم الوضع العام السائد مع تيار الأنوار بتوجه فلاسفته وبارادة المجتمع التي كانت تحتاج إلى من يشعلها أو يحركها. ورغم أن هذا التحول من الروح الداخلي (الفكرة) إلى الطبيعة ألزم دفع العديد من ضرائب الأثمان والاضطهادات، إلا أن العقل الكلي الجديد أجهض العقل الكلي المسيطر؛ مما أدى لانتهاة دور الكنيسة الأوروبية فيما يخص هيمنتها على الأفراد والحياة وتحرر العقل الأوروبي نهائياً من قبضتها، وتحولت إلى مؤسسة دينية تحكمها لوائح وأنظمة المؤسسات الأخرى في المجتمع.

وعلى ضوء ما سبق فإن التساؤلات المهمة التي يعيننا طرحها استلهاها من هذه المقال بالقول كيف لنا أن نعي فلسفة التاريخ وعيا حقيقياً يؤهلنا لتجاوز أزماتنا الراهنة في عالمنا العربي. في تقديري هنا أتفق تماماً مع ما ذهب إليه هاشم صالح في كتابه ”الانسداد التاريخي“ بالقول ”إن تجربة التنوير هي أهم تجربة فكرية يمكن أن تعيننا في حل إشكالاتنا المعاصرة اليوم. لا يعني هذا أن نعود مئتي سنة فهذا مستحيل ولكن هذا يعني أن إشكالاتنا اليوم في العالم الإسلامي مع التخلف والأصوليات وفكر القرون الوسطى والتراث هي الإشكاليات التي واجهها فلاسفة التنوير واستطاعوا مواجهتها والخروج بأوروبا منها. ولذا فإن قراءة ديكرت وسبينوزا وكنط وفولتير وروسو وديدر وغيرهم من فلاسفة النهضة والتنوير أقرب لواقع العالم الإسلامي أكثر من قراءة فلاسفة ما بعد الحداثة، الذين يناقشون قضايا لم تصل لها بعد، فهم مثلاً ينتقدون العقل بعد أن فرض سيطرته، وتحكم بالحياة العامة بينما نحن لم نؤسس لهذا العقل بعد...“

هيغل (مكر أو خبت العقل الكلي المسيطر على التاريخ) حيث يتبدي خبت هذا العقل بأنه يستعين بهذه الشخصيات التاريخية لتحقيق مقاصده دون أن يكون لهم علم بها.

إلا أن الشخصيات التي تحقق (الوعي الذاتي) للروح هي التي تستطيع كسر معادلة التاريخ الغامضة والتمكن من القبض عليه وصناعته. ذلك أن هذه الشخصيات في صيرورة تحريك التاريخ لها لتحقيق مقاصده تبدأ بوعي ذاتها الذي يسبب جملة من الاهتزازات والزلازل الفكرية وذلك مع (الطبيعة) الخارجة التي بالضرورة يحكمها منطق محدد، وثابت من القوانين الفكرية. غير أن هذه الاهتزازات بحسب جدلية هيغل تساهم في خلق (الأفكار المزيج) التي تحدث التحولات الناجحة في الطبيعة الخارجية. ومن هنا نجد أن هيغل في عديد مؤلفاته يسمي الشخصيات التاريخية التي يتحقق على أيديها الزلازل التغييرية (عظماء التاريخ)، وعظماء التاريخ هنا لو قمنا بمقاربة الفعل الفلسفي الذي يحققه هيغل بحسب تحقيق سلامة في مقالة فإننا يمكن تعريفهم بأنهم أولئك الذي يستطيعون تحويل الفكرة من المنطق أو الأنطولوجيا إلى الطبيعة - حيث تنجح الفكرة في التعبير عن نفسها خارج نفسها؛ لأنها تتخارج إذ تنتشر في المكان - وهو دليل بحسب سلامة على أن الفكرة قد مضت خطوة إلى الأمام في اكتساب قدرة أعظم وأصدق في التعبير عن الروح، وهو في الجانب الآخر تحقيق فاعل لوعي الذاتي بالذات. غير أن العائق الرئيس هنا يكمن في الطبيعة ذاتها. ”فالتبيعة - أو فلسفة الطبيعة - ليست إلا جزءاً من حقيقة الروح“ أما تطور هذه الحقيقة، فيستكمل فقط بفلسفة الروح بأكملها“ إذ أن الفكرة في فلسفة الروح تستعيد هيمنتها على ذاتها لأنها تقضي على ما لحق بها من اغتراب نتيجة لتخارجها في الطبيعة؛ فإذا كانت الطبيعة هي السلب الأول للفكرة وغربة الفكرة عن ذاتها؛ فإن التحول من الطبيعة إلى الروح، والذي تنجح الفكرة في تحقيقه، هو السلب الثاني أو سلب السلب الذي تستدمج الفكرة بفضلها لأخرية أو الطبيعة وتحولها إلى جزء لا يتجزأ من الذات نفسها.“

ما يعيننا في هذه القراءة النقدية للمقالة هو الإسقاطات التطبيقية التي نقرأها من خلال تلك التجريدات الفلسفية التي صكت على قدر كبير من التعقيد الجدلي. ففي سياق التاريخ الأوروبي

المحاولات لا تشكل في فلسفته فلسفة تاريخ حقيقية.

- فلسفة التاريخ عند هيغل ببساطة تقوم على دراسة (الروح التفاعلية) للأحداث التاريخية عبر تفصيل جزئياتها البسيطة ومقاصد أحداثها الخفية وربطها بجوهرها وجوهر السياق التاريخي الذي وقعت فيه. قصد تفسير وقائعها والتنبؤ بمسارات أحداثها. ومن هنا فإن جوهر الكشف عن هذه الروح التفاعلية إنما هو كامن في العقل الذي هو بحسب هيغل جوهر أساسي للتاريخ.

- ومن هنا فإن فلسفة التاريخ عند هيغل تنظر إلى البعد الفلسفي للتاريخ بوصفه روحاً تفاعلية ذات مراحل تطور ونمو. لكن هذا التطور لا يسري في العتب وإنما تحكمه جملة من المحددات الرئيسية أولها وموجهها هو الفكر الذي يعتبر المنطق الباطن الكامن في الشخصيات التاريخية. والشخصيات التاريخية بحسب هيغل ما هي إلا مجرد أدوات لتحقيق هذه الفلسفة الكامنة. ذلك أنه ينظر إلى شخصيات التاريخ بأنها مجرد فقاومات تحركها المنفعة أو المصالح الذاتية والبنوية وإرادات الأهواء الآنية والوقفية بدون وعي ذاتي أنها مشاركة في حركة صناعة التاريخ أو منظومته، حيث يقول سلامة في هذا الصدد: ”الصراع الذي تخوضه الفكرة في سبيل تحصيل الوعي الذاتي للروح بذاته صراع جدي عماده المخاطرة بالحياة ذاتها. ولذا فإن الغلبة فيه تكتب دوماً لمن يمضي في الصراع إلى نهايته، للطرف الذي هو أعظم استعداداً لتقبل الموت ثمناً لوعي ذاتي مستقل يترجم عن نفسه بحرية للذات قد تكون تبعية الآخر. وربما استرقاقه أحياناً، جزء لا يتجزأ منها، والفكرة لا تنكص أبداً أمام خطر الموت، إنها على استعداد دوماً للمخاطرة بالحياة كي تحقق أعظم قدر من الحرية أو من الوعي الذاتي بالذات الذي تستشعر الروح من خلاله الخلاص والرضا والمتعة الأبدية التي يحصلها من صيرورته قادراً على التعرف على ذاته في ضده أو في أخريته على وجه الإجمال...“ غير أن هذه الأهداف والمصالح والغايات القصيرة والآنية والجزئية التي تدفع بهذه الشخصيات لتكون مجرد أدوات تاريخية تضم في بواطنها على جوهر فلسفة التاريخ الذي هو (إرادة الروح الكلية أو العقل الكلي). إذن فشخص التاريخ بحسب هيغل لا يتحقق في ذاتها الوعي التاريخي. وإنما تساهم في صنع التاريخ عبر المشاركة في صيرورته لا أكثر، وهو ما يسميه

ولعني عند هذه المقالة أتذكر ما كتبه زهير قاسيمي حول فلسفة هيغل قائلاً: ”لو كان لنا أن نلخص الفلسفة الهيغلية كلها في عدة عبارات، لكان في وسعنا أن نقول إن الحقيقة عند هيغل هي الكلي، والفلسفة في رأيه لا أن تتمثل على شكل نسق علمي، والحقيقة الكلية أن الوجود الواقعي ”صيرورة“، وليست الصيرورة هنا سوى عملية التناقض مع ما يقترن بها من سلب، والروح نفسها ”تاريخ“ والمطلق ”ذات“ لا مجرد ”موضوع...“ إن مثل هذا الطرح الذي يقدمه سلامة يفتح درجاً فلسفياً جدلياً مهما يتعاطى مع العلاقة القائمة بين مبحثين أساسيين في تشكيل الواقع المعاصر وهما مبحث فلسفة التاريخ ومفهوم الروح بكل تعقيداته الجدلية والفلسفية. ذلك أننا إذا ما طرحنا التساؤل حول ماهية التاريخ في الجدلية الهيغلية فإن التعريف يستدعي بالضرورة العلم بالجزئيات الجزئية الدقيقة التي يبني عليها منطق فلسفة هيغل وتدقيق مفاهيمه إزاء تشكيل الحضارة والنظر في طبيعة قوانينه، ومن ثمة الوقوف على العوائق الأبتسمولوجية التي تعترض تلك المفاهيم وفق النطاقات الأساسية التي بنى عليها هيغل ظاهريات الروح تحديداً.

ونحن نعلم جلياً أن تاريخ الشعوب والحضارات والدول قد صك وفق طرائق مختلفة، اختلط فيها غالباً العلمي بما قبل العلمي. كما كان للإيديولوجيا دور توجيهي ركانزي في تكوينه وتسييره. إلا أن ما يطرحه سلامة هنا هو إعادة قراءة هذا التاريخ العالمي ولكن بلغة هيغل التي حاول ابتداعها واسقاطها عبر هذا التاريخ. ومن ذلك يرشدنا القول هنا إلى أن فلسفة التاريخ عند هيغل بالجهاز المنطقي والابتسمولوجي والمصطلحاتي الذي صكه لها عبر مؤلفاته المختلفة تعتبر أكثر الفروع ثراء معرفياً وفكرياً في فلسفته. ذلك أنه أقام نصابها على عدة جوانب فارقة في هذا الحقل المعرفي يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية:

- رفض هيغل التعريف الكلاسيكي المحكوم لفلسفة التاريخ بوصفها مجرد مدونات نظرية توثيقية يقوم خلالها المؤرخ بسرد الأحداث والوقائع وتبويبها وتقديمها للقارئ بصورة خطية مستقيمة، كما رفض أيضاً اختزال التاريخ وتقديمه في صورة وصفية ثم الاتكاء على محاولات خجولة لقراءة دروسه وعبره وإسقاطها على الواقع المعاش، معتبراً أن هذه